الإيمان والحاجة الروحية

يحيى محمد

للدين عند المتلقي خاصتان متميزتان، فبالإضافة إلى المنظومة المعرفية، ثمة ما هو أهم وأعظم تمثيلاً، وهو الحاجة الروحية. وبذلك يختلف الدين عن العلوم والمعارف الصرفة، ومنها العلم الطبيعي. وعند المقارنة بينهما نجد أن كلاً منهما يحمل منظومة معرفية تحتاج إلى تحقيق، فالدين يتحول لدى المتلقي إلى نوع من الفهم، فهو يندّ عن الاتصال المباشر باستثناء المؤسسين الأصليين للديانات، أما غيرهم فبحاجة إلى وسائط. في حين يمثل العلم الطبيعي - في حد ذاته - وسيلة للاتصال غير المباشر بالطبيعة، وهو بهذا يوازي الفهم المعرفي للدين، ومثله بقية العلوم.

ومن حيث الأساس، يعتبر العلم حاجة معرفية قبل ان يكون أداة لتيسير متطلبات الحياة البشرية. وهو عندما يتمثل بالنظريات فانه لا يمانع من تقبل النظرية الخاطئة عند غياب البديل الأنسب وفق المنهج والمعيار المتبع. **بل قد تُرجح النظرية الخاطئة على الصحيحة عندما تتعارض الأخيرة مع هذا المعيار**. وهذا ما يفسر علة تمسك العلماء ببعض النظريات التي تبدو خاطئة وسطحية مثل الداروينية. فربما يكون أغلب المحققين منهم غير مقتنعين بها وبحكاياتها الاسطورية، لكنهم مضطرون إلى التمسك بها حفاظاً على المنهج العلمي كي لا يدفع ثمناً باهضاً. وثمة من يشير إلى هذه الحاجة وفقاً للمعيار المسلّم به، وكما صرح عالم المناعة سكوت تود .Todd Scott C في مجلة الطبيعة Nature عام 1999، فقال وهو بصدد نقد نظرية التصميم الذكي ›› :IDحتى لو كانت جميع البيانات تشير إلى مصمم ذكي، فإن مثل هذه الفرضية مستبعدة من العلم لأنها ليست طبيعية.‹‹

أما الدين لدى المتلقي فحيث انه معني بالحاجة الروحية أكثر من تعبيره عن الحاجة المعرفية؛ فهذا ما يجعله قادراً على تعويض النقص المعرفي في تبرير قضاياه، أو حتى صعوبة اثبات أصله. إذ يكفي في هذه الحالة ان تكون المعايشة الدينية غطاءاً لكل نقص، بل وبديلاً عن كل محاولة لتأسيسه من الخارج. وهذا ما يفسر علة عدم زعزعة ثقة التابعين لمذاهب الأديان رغم كثرة أخطائها وتناقضاتها. فالحاجة الروحية والنفسية إلى الدين هي أكثر سلطة وإحكاماً مقارنة بشأنه المعرفي.

إذاً، سواء في العلم أو في الدين، يمكن المحافظة على المنظومة المعرفية وان كانت غير مثبتة، أو حتى خاطئة، عندما لا يتوفر البديل المناسب. فالعلم الحالي يتبع معياراً فلسفياً يعمل على فلترة النظريات كأصل موجّه، بغض النظر عن صوابها. والدين لدى المتلقي يفعل ما يشابه ذلك تحت سلطة الحاجة الروحية، فحتى لو أُكتشف خطأ متجذر في الدين فانه

يعوّض بتلك الحاجة عند عدم توفر البديل المناسب، وهذا ما يجعل المتلقي يعمل على تأسيسه من الداخل؛ عبر إجراء فهم كلي مناسب وسط امكانات للفهم لا تحصى.

إن المتلقي يساهم في صناعة الدين بالفهم المناسب. فإذا كان الدين سابقاً للفهم من حيث الثبوت، فإن العكس حاصل من حيث الحضور، أي ان الفهم سابق للدين في حضوره لدى المتلقي. وإذا كان الدين متفرداً في ذاته، فصناعته على العكس من ذلك تتعدد بتعدد الافهام من دون حدود. اذ تعتمد هذه الصناعة على المتلقي، وكل صناعة هي ››دين ثانوي‹‹ كما يتلقاها الأتباع، وقد تعبّر عن اتجاه من اتجاهات الفهم الممكنة بلا حدود، كما قد تعبّر عن مذهب معين يتلقاه الناس بالقبول والإتّباع، فتكون حاجباً عن الدين الأصلي، بل كثيراً ما تعامل بانها هي الدين ذاته. ويعبّر عنها بالدين الصحيح، وعندنا - نحن المسلمين - يعبّر عنها أحياناً بالإسلام المحمدي الأصيل، أو الإسلام الصحيح، أو غير ذلك من المسميات المناطة بالصناعة الدينية التي يتقدم فيها الفهم على الدين حضوراً كما أسلفنا.

وبالنسبة للمتلقي، يتقوّم الدين بالإيمان، لكن الأخير قد يتولد استناداً إلى الحاجة الروحية من دون دين يُتعبّد به. فهذه الحاجة متأصلة في روع البشر، فتظهر انعكاساتها على هيئة معايشات روحية متنوعة للإيمان، بما فيها الأشكال المختلفة للتدين.

فالأساس الذي يستند إليه الإيمان ليس الاعتقاد بوجود الإله والغيب عموماً، ولا تأثيره الدائم على الشاهد والعناية به، بل الاحساس بذلك بما يفوق الاعتقاد، كتفوق تذوقنا لطعم التفاحة على علمنا بهذا الطعم. فالاحساس الروحي بالعناية الغيبية هو الأصل الذي يتقوّم به الإيمان خصوصاً والدين عموماً، وهي تتخطى الأسباب الطبيعية دون التعارض معها بالضرورة. وبفضلها ينبني التعلّق الروحي المباشر، فهي كالأم بالنسبة للرضيع الذي لا يفارقها. ويترتب على هذه المسألة جملة قضايا أبرزها الرضا الايجابي بقضاء الله خيره وشره.

ومن الناحية الايبستيمية يكون الإيمان، مثل الدين، مرتبطاً بمنظومته المعرفية، وقد يصعب اثباتها لمحتواها الغيبي، فيكون الاهتمام ليس بتأسيس المنظومة من الخارج، بل صناعتها وتأسيسها من الداخل؛ لتصبح مقبولة ومناسبة حسب فهم المتلقي. لذلك فالإيمان لا يناط بأدلته المعرفية بقدر حاجتنا إليه روحياً، الأمر الذي يتجسد بالمعايشة. فلولا هذه الحاجة والمعايشة القائمة عليها لتقلص إلى أدنى حد ممكن ليفسح المجال إلى غيره من المعارف.

فالإيمان هو مسلك ناجح كما تثبته المعايشة دون اعتبارات خارجية من الدليل أو غيره. وهو من هذه الناحية على شاكلة الثقة بالعلم؛ لا تأتي عبر التفسيرات النظرية، بل لما يمدّه من تنبؤات ناجحة.

فهذه تجربة ناجحة، وتلك تجربة ناجحة، بغض النظر عن الأدلة المعرفية والنظرية.

وعادة ما توصف الحالة الروحية التي يتمظهر فيها الإيمان بالتجربة، لكن اصطلاح ››المعايشة‹‹ أكثر دلالة من ››التجربة‹‹، فالمعايشة ذات سمة متواصلة لا يراد منها اختبار ما تتضمنه من معرفة، وإن كان يجري الاختبار على نجاح المعايشة بما تحققه من نتائج مناسبة، فهي حالة ذوقية يستشعر بها من يعيشها بالطمأنينة والراحة والسكينة، لذلك يمارسها مختلف أصناف البشر، سواء كانوا موحدين أو من أصحاب الديانات الوثنية أو من اتباع وحدة الوجود الصوفية. أما الملحدون فقد تنتابهم بعض المعايشات الروحية بشكل أو بآخر، ويبدو ان من الصعب ان يقضي الانسان عمره من دون الاحساس بهذه الحاجة وممارستها بشكل ما من الأشكال، سواء كان ذلك ضمن الإطار الديني أو خارجه. فهو أشبه بحالة الاقتران الجنسي الذي قد يمتنع عنه الفرد بإرادته تماماً، لكن ليس بوسع البشر - كأغلبية - الإعراض عنه.

وكما أشارت بعض الدراسات العلمية إلى ان الإيمان بالمعنى الموسّع قد ثبتت حاجته البايولوجية، وان له فوائد في الصحة البدنية والنفسية والاجتماعية. وهذا ما أكده عالم الأعصاب الأمريكي أندرو نيوبيرج في كتابه المشترك مع مارك روبرت والدمان (كيف يغير الله دماغك How God Changes Your Brain) عام 2009، فذكر بأن البحث الميداني قد أظهر لنا أن الله هو جزء من وعينا، وأنه كلما فكرنا أكثر في الله كلما قمنا بتغيير الدارات العصبية في أجزاء معينة من دماغنا، وبالتالي إن الله يستطيع ان يغير دماغنا، دون ان يهم إنْ كنّا من أتباع الدين المسيحي أو اليهودي أو الإسلامي أو الهندوسي أو الإلحادي أو اللاأدرية.

وأشار إلى ان الدماغ البشري مبني بشكل فريد لإدراك الحقائق الروحية وتوليدها. واقترح ان يكون الله هو شعور أكثر من كونه فكرة، وأن التجربة الروحية لكل شخص تقريباً فريدة من نوعها، وأن هذه التجارب غالباً ما تولدها حالات طويلة الأمد من الوحدة والسلام والحب. كما اعتبر ان الشيء الذي تعلمه هو أن وراء دافعنا للبقاء وجود قوة أخرى، وأفضل كلمة لوصفها هي الإيمان. وقصد بها ليس فقط الإيمان بالله أو العلم أو الحب، بل والإيمان بأنفسنا وببعضنا البعض. فوجود الإيمان في روح الإنسان هو ما يدفعنا للبقاء على قيد الحياة ويعطيها معنى يجعلها تستحق العيش بالأمل والتفاؤل. فالإيمان جزء لا يتجزأ من خلايانا العصبية وجيناتنا، وهو أحد أهم المبادئ التي يجب تكريمها في حياتنا. مع أخذ اعتبار ان بعض الناس يضعون إيمانهم بالله، بينما يضعه آخرون في العلم أو العلاقات أو العمل.

***

إن التعامل مع المعايشة الإيمانية هو على شاكلة التعامل مع المعايشة الحسية عموماً، حيث نستشعر بالوثوق والطمأنينة ما يلبي حاجاتنا وإنْ افتقرنا إلى الدليل على صحة ما تنبني عليه هذه المعايشة الروحية من منظومة معرفية.

ففي المعايشة الحسية نشعر باندماجنا في الواقع العام وتفاعلنا معه دون أدنى شك، وهذا ما يجعلنا نؤمن بوجود الواقع الموضوعي العام إيماناً لا ينتابه أدنى شك من الناحية العملية، رغم

غياب الدليل النظري على هذا الإيمان كلياً. وبالتالي فليس كل قضية تحتاج إلى دليل وبرهان، فبعض القضايا واضحة وإنْ لم نمتلك عليها الدليل، سواء كانت بديهية أو غير بديهية.

ولعل معايشتنا الواقعية هي خير مثال. فقد نشكك في شيء خاص رأيناه إنْ كان واقعاً أم وهماً، لكننا لا نشكك اطلاقاً بأننا نعيش الواقع العام ونتفاعل معه اجمالاً وإنْ لم نمتلك على ذلك الدليل والبرهان.

كذلك هي التجربة الإيمانية، فنحن نعيشها ونتفاعل معها كحقيقة مجملة مسلّم بها دون التدقيق في تفاصيلها المعرفية.

وما يجعلنا نعيشها هو لحاجة روحية متأصلة؛ فنتعامل معها تعامل البديهات وإنْ لم نمتلك عليها الدليل والبرهان المقنع، يكفي انها تلبي حاجتنا الروحية العامة، مثلما تلبي حريتنا البشرية بعض حاجاتنا المتأصلة حتى لو كنّا لا نمتلك عليها دليلاً يقضي بأننا أحرار بالفعل من دون وهم. وحقيقة يوجد ما يدلّ ظاهراً على هذه الحرية كما أشرنا إليه في (مفارقات نقد العقل المحض).

لذا نعتقد انه حتى لو كانت حريتنا الانسانية ومثلها معايشتنا الإيمانية متأسسة على الأوهام؛ فإنها تعبّر عن وسائل هامة لتحقيق غاية وجودية عظمى. ومن وجهة نظرنا تتمثل هذه الغاية بالتطور الذي سيتحول فيه البشر إلى كائن جديد مختلف، كالذي فصلنا الحديث عنه في بعض الدراسات المستقلة[1]. وهذا في حد ذاته يصحح الحكمة من وجود مثل هذه الظواهر حتى وإنْ كانت وهمية خادعة. فقد يكون من ضمن الخطة الوجودية أن تتحقق بعض المصالح عبر الأوهام، أي ما يتوهمه البشر انه حقيقة. وفيها يصبح الوهم أحد العناصر الوجودية الهامة والممهدة لتحقيق الغايات المطلوبة.

وليس هذا بالأمر الغريب، فكثيراً ما نستخدم لغة الإيهام في سرد القصص لأطفالنا، وهي من الوسائل الهامة التي تعمل على توسعة خيال الطفل، سواء أدركنا ذلك أم لم ندرك. بل أكثر من هذا إننا نتعامل معهم أحياناً بهذه اللغة، إما لأجل الحفاظ عليهم، أو لتنشئتهم بما يتناسب مع طبيعة ادراكاتهم. وسبق لنا أن أعتبرنا الوعيد الديني بالعذاب الطويل الأمد هو من هذا الصنف الإيهامي، كما في (علم الطريقة).

وعموماً نعتقد ان لأصالة الحاجة الإيمانية غرضاً يستهدف غاية وجودية مقبلة. وعلى الرغم من تنوعها وانها تتلبس أحياناً بالمظاهر المعيارية كما في الأديان التوحيدية الحاملة لنظرية التكليف، إلا انها قد تستهدف غرضاً وجودياً نحسبه متمثلاً بولادة كائن جديد قادم يختلف عن مزايا ما يتصف به البشر حالياً، رغم عدم وعينا بمثل هذا الغرض.

فقد تستهدف الأفعال البشرية غايات مصلحية مدركة، كما في تحقيق مصالهم الخاصة والعامة، لكنها قد تفضي إلى تحقيق أهداف بعيدة غير مدركة، أي إنها تنشأ من خلال المصالح المدركة

ذاتها وإنْ لم تكن محل وعي وادراك. بل اقتضت حكمة الوجود ان تنشأ بهذا الشكل. فهي أشبه بتحقيق المصالح العامة دون قصد من خلال تنفيذ الأهداف الخاصة بقصد ووعي.

فالأفعال البشرية تمتلك مصالح مختلفة، منها شخصية، ومنها اجتماعية، قد تكون محدودة ضمن نطاق معين، كما قد تنبسط على البشرية جمعاء، وقد يبرز أثرها أكثر فأكثر عبر تقادم الزمن، كما هو الحال في الابداعات الفريدة للعلماء، لكن قد تحقق هذه الأفعال نوعاً آخر من المصالح نعبّر عنه بالمصلحة التحولية، حيث تؤدي الأفعال البشرية إلى ايجاد كائن جديد أكثر كمالاً؛ سواء بقصد أو بغير قصد.

وتعتبر المصلحة الأخيرة مفترضة، خلافاً للمصالح السابقة، فقد تكون وهمية. إذ حتى مع التسليم بنظرية قدوم كائن جديد متحول، فليس بالضرورة ان يكون ذلك معتمداً على الأفعال البشرية وتصاميمها، إذ قد ينشأ بفعل الغزو الفايروسي والبكتيري وفق نظرية الكون الجرثومي، أو وفق طرق أخرى مختلفة.

لكن في جميع الأحوال نعتقد ان حياة البشر ممهدة لمصلحة ايجاد كائن جديد. وهي المصلحة الوحيدة غير المتحققة إذا ما قارناها بغيرها من المصالح السابقة. وافتراضها قائم على جملة أسباب ومبررات؛ مثل ان نشوء البشر قد نتج عن سلسلة ممتدة من التطور الطولي المدعوم بالغائية والتوجيه، وان نشوء الانسان الحديث قد تدرج ضمن عدد من المراحل التكاملية، لكنها ما زالت ناقصة تحتاج إلى اتمام.

***

لقد سبق ان أشرنا إلى ان الإيمان هو جزء متأصل في الدين رغم استقلالية الأول، إذ قد يتحقق الإيمان من غير دين، لكن من المحال ان يحصل العكس. وهذا يعني ان للدين منظومة اعتقادية أكثر سعة من الإيمان ذاته. لذلك تزداد صعوبة الاستدلال عليها وتأسيسها من الخارج مقارنة بالإيمان، ويكتفى بالتأسيس الداخلي. وحيث انها واسعة، فإن امكانيات التأسيس الداخلي تزداد تنوعاً فهماً وصناعة. لذا فعلى المتلقي ان يختار واحداً من الامكانات المتنافسة للانساق الاعتقادية، فيصبح النسق المختار ما يمثل صناعة الدين التي تتأسس عليها المعايشة الروحية. لذلك تتنوع الأنساق الاعتقادية القائمة على المنظومة الدينية الواحدة، وجميعها يصبح مدعوماً بالحاجة الروحية للإيمان، ولولا هذه الحاجة لأصبحت مجرد اعتقادات غيبية يصعب التمسك بها. لكن بفعل الحاجة الروحية يشتد الالتزام بالنسق الاعتقادي، إلى درجة قد يضحي الفرد بنفسه من أجل هذا النسق، حتى وإنْ كان خرافياً أو شديد الضرر والخطورة.

وعادة ما يخطئ البشر ويضلون في عدد من الحالات عند الصناعة الدينية للأنساق الاعتقادية، ويمكن اجمالها كالتالي:

1- إنهم كثيراً ما يجعلون الإيمان مرتبطاً بمخلوقات مثلهم ويختلفون حولها، فيظهر الغلو وشدة المعاداة والتكفير والتضليل لبعضهم البعض، ومن ثم فضرر مثل هذا الإيمان أكثر من نفعه.

2- إنهم يوسّعون من دائرة الاعتقاد الديني عبر تفاصيل من الصعب اثباتها، أو حتى تبدو هشة للغاية. ومن ذلك إنهم في الدائرة الإسلامية يكثرون من الاعتقادات القائمة على الحديث المنقول بحجج واهية.

3- إنهم يعملون بالفهم المفصل للقضية الواحدة مع كثرة الاحتمالات والوقوع في الخطأ.

4- إنهم يحكّمون القضايا الدينية على الوجدانيات مثل القيم الأخلاقية العامة.

5- إنهم يجردون النص الديني من علاقته بالواقع التنزيلي.

6- إنهم يدعون إلى الأنانية المتوحشة، ليس فقط من حيث الميل إلى الاعتداء على الآخر وربما قتله، بل كذلك إنهم يرجحون العمل بالمظاهر والشكليات الدينية من الواجبات وحتى المستحبات على تسديد الحاجات الانسانية الملحّة. ولكَ أن تتخيل العكس؛ كيف سيكون حال المحتاجين والفقراء حينها؟!

هذه هي أهم فقرات النسق الاعتقادي التي صاغها البشر كصناعة دينية ضارة غير صالحة. ويؤسف له ان أثرها ما زال شديد الوطء حتى يومنا هذا.

ولكي تُصحح وتكون صالحة للبشر لا بد من صناعة دينية معاكسة تقوم على الفقرات التالية:

1- جعل الإيمان والمعايشة الروحية مرتبطة بالخالق لا المخلوق. فمهما علت مرتبة الأخير فانه لا يفيد ولا يستفيد.

2- ينبغي تقليص قضايا الاعتقاد، وما يرتبط به من عمل، إلى أقصى حد ممكن عبر الأخذ بما هو قطعي دون غيره.

3- أن يُجرى نحت القضايا الدينية وفق مسلك الفهم المجمل دون الدخول في متاهات التفصيلات المحتملة التي لا تثمر ولا تنتهي إلى حد.

4- جعل القيم الأخلاقية والمقاصد الدينية العامة هي الحاكمة على جزئيات القضايا الدينية لا العكس.

5- ربط النص بالواقع من دون تجريد.

6- شجب الأنانية الدينية المتوحشة وإبدالها بالإثرة الدينية المتفتحة عبر احترام خيارات الآخر من دون اعتداء، مع ترجيح تسديد الحاجات الانسانية على المظاهر والشكليات الدينية.

هذه مجمل فقرات الصناعة الدينية الصالحة كما فصلنا الحديث عنها في (النظام الواقعي).

---

[1] انظر: المنتظر القادم، موقع فلسفة العلم والفهم، نشرت بتاريخ 2-5-2021: https://www.philosophyofsci.com/index.php?id=167 كذلك: لماذا نحن هنا؟، موقع فلسفة العلم والفهم، نشرت بتاريخ 22-6-2021: https://www.philosophyofsci.com/index.php?id=172